مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثالث عشر، يونيو 2010

Journal of Alasmarya University
Volume 13, June 2010

قراءات في الجانب العقدي لدى المسلم

ومدى تأثره بسلوكه المعاصر

د. عبد الحميد الأحرش*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه وأغصان دوحته ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه إلى يوم الدين. وبعد،

فإن البحث في الجانب العقدي في حياة المسلم أمر له أهمية عظيمة؛ للتعرف على خطاب الشارع للأمة الإسلامية ومدى تأثيره في بناء الشخصية المسلمة وعلاقتها بالله أولاً ثم علاقتها بالآخر على كافة الصعد، وهذا الأمر يقودنا إلى ضرورة إمعان النظر في واقع المسلمين في هذا العصر أفراداً وجماعات، فإنه ولاشك واقع مهين؛ بسبب ما أحيط به من أوضاع سيئة أدت إلى انحطاطه وتأخره في جميع المجالات الحيوية، بخاصة القيم الاجتماعية والأخلاقية والدينية التي تكاد في بعض عواصم الأقطار الإسلامية ينمحي وجودها ويحس الإنسان المسلم في ربوعها بالغربة، بله يشعر كأنه في باريس أو لندن ولا أبالغ إن قلت أسوء من ذلك.

لعل من أحد أسباب ذلك سيطرة الحضارة الغربية المادية على كل أوجه الحياة مما أدى إلى تخلي مجتمعاتنا الإسلامية عن جوهر عقيدتها، وقيمها الأخلاقية العظيمة.

ومن هنا نحس أننا في حاجة ماسة إلى دراسات معمقة تهدف في مجملها إلى إذكاء الوازع الديني وبث روح الهداية والتقوى في نفوس الناس، والرفع من مستوى

* جامعة الجبل الغربي.

تفكيرهم وثقافتهم عموما؛ لاستنهاض عوامل القوة والمنعة في المجتمع؛ ولا يتم ذلك إلا بعدم الانكفاء عن الذات والهروب من ساحة المتغير والمستجد إلى ساحة المقدس والثابت لكي يمكن الوقوف أمام المؤثرات المادية والفكرية الغربية.

لعل هذا البحث المتواضع لا يرقى إلى مصاف تلك الدراسات العلمية التي يقدمها الكثير من المفكرين والعلماء، ولكن أحاول أن استنطق فيه بعضاً من مبادئ وأسس العقيدة الإسلامية المتينة التي أرساها الله في كتابه العزيز؛ للوقوف على ما نتغياه من أسمى الأهداف النبيلة والقيم الروحية التي تضفي على السلوك الإنساني فيوضات ربانية تجعلنا قادرين على الرقي في أعلى سلم التطور والتقدم.

ولعل من بين هذه الأسس قاعدتان أساسيتان وردتا في سورة الفاتحة، وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]. فالقاعدة الأولى تتضمن التوحيد، الذي يشمل عدة مسائل ومنها: مسائل الإلهيات وهي الاعتقاد بوحدانية الله تعالى في الذات والصفات والأفعال، وكل ما هو في حق الله تعالى، ومسائل السمعيات التي تتلقى إلا من السمع ولا تؤخذ إلا من الوحي، كالبعث والجنة والنار والثواب والعقاب وغيرها. ثم مسائل النبوات التي يبحث فيها عن النبوة وأحوالها.

أما القاعدة الثانية فهي تكمن في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيث تتضمن السعي والعمل ومجاهدة النفس استعانةً بالله العلي القدير، فتتشكل من هاتين القاعدتين أي من الجوانب الروحية والعملية المادية أعلى درجات اليقين، ومنهما تنطلق النفس إلى أسمى ما ترنو الوصول إليه مما تحتاجه في الحياة وبعد الممات من خيري الدنيا والآخرة.

وإذا تطرقنا إلى أي مشكلة من مشاكل العصر في المجتمع المسلم، فإنها من الطبيعي تحتاج في الواقع العملي إلى حل يهم الجميع، ولكن ذلك كما هو معروف يستلزم الوقوف على جذور تلك المشكلة؛ لمعرفة أسباب استشرائها كظاهرة تعرقل مسارات التنمية مثلاً، وظاهرة الإدمان أو الرذيلة أو السطو المنظم.

كل ذلك يعمل على إيجاد خلل في كيان المجتمع، فلا بد أولاً من تشخيص داء هذه الظواهر ومعرفة أسبابها ومواضع ضعفها وقوتها حتى نتمكن من وضع البلسم الشافي والعلاج المناسب لهذه الظواهر.

ولعل ما ورد في القاعدتين السابقتين كأساس لكل العلاجات التي تأتي من بعدها، تضم في مجموعها إلى جانب المفاهيم الفقهية المتوازنة دراسات تاريخية ونفسية

واجتماعية وغيرها من علوم المستقبليات، دون الاكتفاء ببعض الجوانب والجزيئات في المذاهب والفروع الفقهية فحسب.

وفي اعتقادي أن أكثر أسباب هذه الظواهر تكمن في الفراغ الديني، وخلو الجانب العقدي من جوانبه الروحية، الذي نعبر عنه بقلة الإيمان الحقيقي، فقد تجد بعض الناس يصلون ويصمون ويؤدون فريضة الحج مثلاً، ولكن -في حقيقة الأمر- منهم من يتظاهر بذلك لكسب ود الآخرين ومحبتهم، فلم تكن صلواتهم وعباداتهم ﴿مُكَآءً وَتَصۡدِيَةً﴾ [الأنفال: 35] فأقل ما يقال عنها أنها عبادة جوفاء مفرغة من الطاقة الروحية التي تزود الإنسان بالإيمان الحقيقي الذي يلتقي فيه مع العمل ليكونا روحا وجسدا معا.

فتبصير الناس وتوعيتهم بالقضايا التي يعانون منها وبأسبابها وكيفية علاجها لاستئصال شأفتها مهم ومفيد على مستوى الطرح العلمي والدعوي، بدلا من الانغلاق على بعض الجزئيات الفرعية في الفقه، كمعرفة مدى صحة من صلى قابضا أو باسطا يديه أو شرع في كل تكبيرة أو في تكبيرة الإحرام فقط، أو مسح على الجورب أو الصلاة بالحذاء، فإن الاقتصار على مثل هذه الجزئيات لا يحقق حسب اعتقادي الأهداف المرجوة، وإلا ستكون اهتماماتنا تدور حول محور ضيق، لا يراعي منهج الشمولية في الخطاب الديني الموجه إلى الجماعة والأفراد معا، لكي تستطيع مواكبة التطور العلمي والثقافي، فلا يكفي الإصلاح الفردي الذي يقتصر على أداء الصلاة والصوم وسائر العبادات الأخرى وهو ما يريد المستعمر الغربي أن لا نتجاوزه، وترك الجوانب والقضايا الهامة في حياتنا ومنها مواكبة الثقافة والعلم الذي ينهض بالأمة ويضعها في مصاف الأمم المتقدمة. وإن كنت بشكل عام لا أرى مسوغا للفصل أو التمييز بين الموضوعات التي تتناول جوانب العبادات، وغيرها من الموضوعات الأخرى التي تعالج قضايا اجتماعية واقتصادية عامة محلية وغير محلية من وجهة شرعية أو قانونية، لما لجميعها من أهمية في حياة المسلم والمجتمع عموما[1].

والحقيقة التي لا مراء فيها أن أمتنا العربية والإسلامية تعيش بشكل عام مفاصلةً صعبة في الوقت الراهن، فالعالم أجمع يمر بتطورات هامة في تاريخ البشرية، وبخاصة بعد التقدم المذهل والخطير الذي شهدته بفعل ثورة المعلومات

1- ينظر: د. محمد عمارة: مقال على شبكة المعلومات العربية بعنوان مستقبلنا بين العالمية والإسلامية والعولمة الغربية.

والاتصالات، لدرجة أصبح العالم وكأنه قرية كونية صغيرة، تتلاقى فيها كافة الحضارات المتباينة والثقافات المختلفة، فتتفاعل فيما بينها أحيانا، وتتصارع أحيانا أخرى، وقد صحب هذه التطورات ظهور تكتلات اقتصادية كبيرة وسياسية بين بعض الشعوب المجاورة ذات الأصول الحضارية المتقاربة كالاتحاد الأوروبي مثلاً، بينما اندلعت على الجانب الآخر المتخلف صراعات عرقية ودينية انتهت بتفشي ظاهرة الإرهاب المنظم وغير المنظم في بعض أجزاء من العالم.

ومما زاد في حدة تلك الظاهرة، محاولة بعض القوى العظمى إحكام السيطرة بوسائل العولمة التي تعني إخضاع العالم لقوانين قسرية ذات إطار محدد، غرضها الهيمنة على ثقافة واقتصاد بقية مناطق العالم، ومنها منطقة الوطن العربي والإسلامي الذي ولا شك له خصوصيته الدينية والتراثية والفكرية، تحاول هذه القوى بما يسمى العولمة القضاء على تلك الخصوصيات، فهل فعلا تأثرت ثقافتنا بتيار العولمة تأثراً سلبيا؟ بمعنى هل تأثرت ثقافتنا بثقافة الآخر؟

هذا السؤال يطرح جدلية الثقافة المعاصرة في محيطنا العربي والإسلامي، وينبهنا في الوقت الراهن إلى أن هناك خطورةً كبيرةً تكمن في النقل الأعمى من الغرب -أي أننا ننقل أزياءهم وعاداتهم وأعرافهم وثقافتهم ونحلهم- نقلا لا تفحص فيه، حيث إن الثقافة الغربية التي تصلنا بوسائل الاتصال والثورة المعلوماتية أو (الإنترنت)، تعمل على تشويه مبادئ ديننا وإذابة شخصيتنا وطمس هويتنا وتراثنا، دون مراعاة ما لنا من خصوصية المعتقد والثقافة والتراث، كما للأمم الأخرى خصوصيات وهويات نحترمها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: 13] فإذا كان لكل أمة خصوصيات المعتقد والتراث، فإن لأمتنا العربية والإسلامية كذلك.

الواقع أننا لا ننكر ما لهذه العولمة الغربية من تأثير إيجابي على ثقافتنا كالاستفادة من تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات عن طريق شبكة المعلومات والقنوات الفضائية التي قربت البعيد وأزاحت العوائق وفتحت الأبواب المغلقة أمام الثقافات، ولكنها في المقابل تسللت بعض قيمها الفاسدة إلينا، منها ما يثير القلق والاضطراب لمرجعياتنا الدينية والثقافية والتربوية، فقد عملت لنا ضجيجا في أسماعنا، وخلطا في أفهامنا، لما تقدمه من برامج محاطة بدوافع استعمارية؛ لفرض السيطرة وصهر الشخصية وإذابة المعتقد.

ومنها ما يرسخ مبدأ الربح السريع، كالمسابقات ومحلات اللعب فتخلق جيلاً متواكلا متقاعسا يضيع الوقت والجهد على حساب قيم العمل الشريف والتضحية ومد يد العون للآخرين والتعاطف بين الناس.

فالعولمة الثقافية الغربية لا تحاربنا بالحديد والنار كما كان يفعل الاستعمار في السابق، وإنما تحاربنا بالعلم الذي يمرض اليقين والأستاذ الذي يموه الفكر، والكتاب الذي يزرع الشك، والمفاهيم المشوهة التي تقتحم أبواب القلوب، والثقافة التي تزين الفحش، والخمرة وغيرها من المواد المخدرة التي تفسد العقل والخلق والدين والبدن.

فإذا كان للحضارة الغربية شاو عظيم في جوانبها المادية، حيث بسطت نفوذها وسلطتها على الخاضعين لها، تسومهم ضروبا من العسف والهوان، فإنها مفرغة من جانبها الروحي وهو الأهم في نسيج الفكر والحضارة الإنسانية، وأن الأحداث التاريخية ابتداءً من اليونان ومروراً بالرومان وانتهاءً بالمستعمرين الغربيين في العصر الحديث شاهدة على صحة ذلك، فكلهم نماذج متشابهة في الرغبة والسيادة والاستغلال.

وفي المقابل نجد أن للفكر الإسلامي توجها روحيا أعظم وأبلغ في ازدهار الحضارة الإنسانية قاطبة وإن تغافل عنه الكثيرون، لكن الله أراد للمسلمين شأنا آخر، وتفوقا من نوع فريد، لم يلتفت إليه ظافر ولا منتصر من قبل.

وتكفينا من بعض ما في سورة النصر من بيان لذلك التوجه، وهي وإن فسرت من قبل العديد من المفسرين إلا أنها لا زالت بحاجة إلى مزيد من التأمل، آيات قصار، ولكن معانيها الفلسفية عميقة. قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: 1] فالنصر والفتح نصر وفتح من الله أولا، فليس للإنسان فيه فضل، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: 2] فيه تمام الانتصار والسيادة ثانيا، ثم جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 3] فهذا هو رد فعل المسلم عندما ينتصر أي انتصار لا يخالجه فيه زهو ولا كبرياء ولا غطرسة، وإنما تسبيح وحمد واستغفار وتوبة، كما فعل القائد القدوة رسول الإنسانية محمد ﷺ أثناء فتحة لمكة، دخلها راكبا راحلته خافضا رأسه في تواضع لله تعالى، حتى أن أسفل لحيته تلامس رحله.

وفي هذا توجيه إسلامي رائع ومتفرد، يحيل الأعمال المادية كلها إلى روحانيات سامية، وكأنها إشارة إلى بقاء الروح أمام زوال المادة الفانية.

فمثل هذه الجوانب المضيئة والمتأصلة في ديننا يجب أن نقف عندها لنستلهم منها الدروس والعبر، ولنعرف كيف يمكن مواجهة الثقافات الغازية بقيمنا الدينية وتراثنا الفقهي والحضاري المصفى وإن أخفقنا في كيفية إدارة هذه القيم وتقديمها للآخر، على أنها صالحة للإنسانية جمعاء كما أرادها الله، لا كما نقدمها نحن لأنفسنا وللآخرين.

ومن الأمثلة الدالة على سوء تقديم هذه القيم الدينية والأخلاقية للآخر، ما ذكره الشيخ الحبيب الجفري في محطة اقرأ الفضائية أن شخصا بريطانيا جاء لمركز إسلامي في لندن وسأل مسؤولاً فيه عن بعض مبادئ الإسلام، وذكر له أنه قرأ كثيراً حول هذا الدين، ووجد أن شخصية محمد ليست شخصية تاريخية أو قيادية فحسب، وإنما وجده شخصية فذة تختلف عن باقي الشخصيات التاريخية والقيادية؛ لما جاء به من قيم ومثل لم يكن عصارة فكر إنساني، فأراد أن يفهم هذا السائل المزيد من حقائق هذا الدين؛ لأنه -كما يبدو- يريد أن يسلم. فماذا كانت إجابة ذلك المسؤول أو الداعية؟ قال له أولا: يجب عليك أن تعلم أن من يدخل هذا الدين إذا سرق تقطع يده، وإذا زنى يجلد أو يرجم، وإذا ارتد يقتل.

فإذا نظرنا في هذه الإجابات والتوضيحات من ذلك المسؤول، فماذا يكون الرد؟ أهكذا يكون أسلوب الداعية؟ أو هكذا تكون الدعوة للإسلام وترغيب الآخرين فيه وتأليف قلوبهم، أم هو أسلوب تنفير وتكفير، إلى درجة أن ذلك السائل ذهب وقلبه منقبض مما سمع، ولكن عقله وفكره لازالا معلقين بما قرأ وسمع حول هذا الدين. فبمثل هذا الحمق والجهل والغباء يوشك أن يعصف بمعتقداتنا[2].

في حين أن العولمة وما تحويه من غزو ثقافي غربي تعمل جاهدة على كل المستويات، من أجل تنصير شبابنا المسلم في أفريقيا وآسيا وفي كل مكان يوجد فيه مسلمون، بل ووصم ديننا بالتخلف وأنه تراث لا يصلح لحياة الإنسان المعاصر. ولعل ما يحدث الآن في العالم المتحضر من مفارقات عجيبة وغريبة خير دليل على صحة هذا القول، حيث تم في تركيا الاعتراض على صلاة القيام بالطريقة المعتادة ومنع مكبرات الصوت، وعلى الجانب التشريعي ألغت الحكومة التركية القوانين التي تجرم الزنى، فها هي العلمانية التركية تسعى جاهدةً اليوم بكل قوة لمنع صلاة القيام أو

2- الحبيب الجفري الحديث لمحطة اقرأ الفضائية.

اختصارها على الأقل في الفترة الحالية، حتى أن أحد دعاة هذا التوجه ذكر أنه يمكن أن تصلى مع العشاء في خمس دقائق.

فهم يحسبون للعبادة بالدقائق حفاظا على الوقت ولكنهم يستغرقون الساعات الطوال في المجون واللهو والمعاصي، كل ذلك لترضى عنهم أوروبا المسيحية للدخول في السوق الأوروبية المشتركة والاتحاد الأوروبي. وصدق ربنا جل وعلا إذ يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120]، فهذه الدول تعترض على تركيا الدخول في هذه السوق، بحجة أنها بلد إسلامي ، وأن أوروبا دول مسيحية، فهم يقيمون الأوضاع بمنطق معكوس، يرون قيام حلف بأكمله على أساس ديني، ولكنهم في الوقت نفسه لم يسمحوا للشعب المسلم في هذه الدولة حتى صيام رمضان وتأدية ما فيه من شعائر دينية، فهذه إحدى المفارقات.

والعجب أن الغرب لا يطبق العلمانية كما يدعي، وبخاصة عندما يواجه الإسلام والمسلمين، وخير دليل على ذلك تصريح بوش بعيد حادثة الحادي عشر من سبتمبر2001م حيث أعلن بأن حربه ضد المسلمين في أفغانستان حرباً صليبية، ولكن الأكثر عجبا واستغراباً نجد الكثيرين من أبناء أمة الإسلام قد تغلغلت العلمانية في أفكارهم وطغت على أسلوب حياتهم فلا يرون الإسلام عقيدة وشريعة، فكيف نلوم الغرب مطالبته إلغاء أو طرح بعض الآيات التي يشتم منها رائحة العداء لإسرائيل وللغرب ولسياساته المهيمنة وفينا سماعون لأفكارهم الهدامة، بفعل هذه العلمانية والعولمة المهيمنة والضاربة لكل الثقافات والأديان وعلى رأسها الدين الإسلامي، باعتباره تراثا حان أجله، مع يقيننا أن الإسلام دين ودولة ومنهج حياة متكامل صالح لكل زمان ومكان.

هذه الأمور إذا لم نتنبه لها، فقد تؤدي إلى انحسار الأثر الديني والأخلاقي، فتعمل مجتمعة على تغييب وتغريب الجوانب الروحية أمام طغيان القوى الغربية من الخارج والعامل المادي المسيطر على أحوال الناس في هذا العصر من الداخل، فينتشر الفساد بكل صوره.

فهذه قضية أخرى كانت سببا دفعني لطرح هذا الموضوع، وهو الوقوف على الجوانب الروحية التي تسهم إسهاما كبيرا في إعادة النهضة الدينية والعلمية والاجتماعية لهذه الأمة.

فإذا كان أساس التشريع الإسلامي وجوهره هو تحقيق المصلحة والعدل وهما المقصد الكلي لهذا التشريع، لا التقوقع في ظل أفكار أو اجتهادات شخصية لا تمت لعصرنا وأحوالنا التي نحياها، وحيث إن وحدة المصدر وهو التشريع السماوي تقتضي وحدة منطقه الذي يحكمه، فلا مسوغ إذاً للانكفاء على اجترار تلك الاجتهادات وترك القضايا المعاصرة تسير في ركبها دون النظر والاعتبار لمستجدات الأمور وتطورها التي يجب أن يعيها المسلم المعاصر لفهم دينه وتجذير عقيدته.

فالتوحيد -كما نعلم- سر شجاعة المسلم وسر دفاعه عن الحق، فإن شهادة « لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله » هي الطاقة العظمى التي تحرك في النفس البشرية مشاعر القوى، فتذهب عنها قيود الخوف والرياء والتكلف، وتؤهلها لأن ترتقي في مدارج التحضر، جاعلة المؤمن قويا في معتقده وفي عمله.

فإن هذا اليقين هو الذي تتحول به كلمات الشهادة من مجرد ألفاظ ينطق بها إلى أخلاق يتخلق بها، وإلى مبادئ توجه سلوكه لتنقذه من مهاوي الضلال، لكيلا يلتبس عليه البعد الحقيقي للأفكار المضللة للعقيدة، والماسخة للشخصية ما يلتبس على غيره، الذي قد تصهره تلك الأفكار إلى درجة اللحاق أو الانسحاق.

كما لا يخفى أن ركائز عقيدة التوحيد هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث والحساب والقضاء والقدر، فهذه الغيبيات والنبوات والسمعيات هي الجوانب الروحية المكينة التي سرعان ما تتحول إلى واقع عملي وسلوك إيجابي معيش، يحكم توجه المسلم. بمعنى أنه يستطيع بهذه القاعدة الإيمانية الانطلاق نحو البناء والتعمير، وبهذا المسلك يعيد لحضارته الإسلامية رونقها ووجهها المشرق، ولا يتم ذلك إلا ببعث تلك الجوانب الروحية في وجدان وضمير أطفالنا وشبابنا وكهولنا إلى درجة التشرب، دون الاكتفاء بما ورثناه من عادات وتقاليد قد يكون أغلبها مستوردا من الشرق أو الغرب، ودون الرضا بالواقع المذل، وقد ثبت فشل أغلب مناهجنا العربية والإسلامية في تجسيد العقيدة الصحيحة في معان وقيم لصيقة بالواقع المعيش في أعماق نفوس طلابنا.

ولعل ذلك راجعا إلى أسباب كثيرة، ليس المنهج وحده ولا الطالب، ولا الأسرة فقط، بل إن للأستاذ دوراً كبيراً في تهيئة الطالب وإعداده للعملية التعليمية والتربوية، لفهم ما يقدم له من مادة علمية، ولكن الملاحظ أن هناك من المعلمين وللأسف من ينفر الطالب من موضوعات المادة العلمية، ومنها دروس الكيمياء أو الفيزياء أو النحو أو

التوحيد أو مصطلح الحديث وغيرها، وربما من المدرسة برمتها، لفقدانه أسلوب التعامل مع طلابه وغير ذلك من جوانب النقص التي يضيق المقام لذكرها، ولا أريد أن أذهب بعيداً لبيان ما نحن في حاجة إليه ممن يحمل عبء هذه الأمانة بعد هؤلاء المعلمين، وبخاصة العلم الشرعي الذي بدأ يتناقص كماً وكيفاً. فليتق الله المعنيون بالأمر من أساتذة وغيرهم وإلا ستكون النتيجة ضياع طلابنا، فينعكس ذلك كله على الأسرة والمجتمع معا.

إذاً كل شرائح المجتمع بحاجة إلى تلك الجوانب الروحية مرورا بالعبادات وانتهاءً بالمعاملات إلى أن تصبح إماطة الأذى عن الطريق شعبة ناطقة من شعب الإيمان.

فإذا تحدثنا عن العبادات مثلاً نقول: كيف تحرك فينا الجوانب الروحية لتصبح عاملاً أساسياً لبناء المجتمع الإسلامي؟.

والجواب أن هذه العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها تسهم إسهاما عظيما في إحياء الجوانب الروحية لدى الإنسان، سواء في جانب العقيدة أو في جانب العبادات أو المعاملات. ولكن قبل تفصيل مدى تأثير الجوانب الروحية في تقدم الأمة لا بد أن نستحضر أولاً القاعدة الأساسية لهذه الجوانب وهي قول النبي ﷺ: « إنما الأعمال بالنيات ... »[3] وهذا يعتبر قاعدة أساسية من قواعد الإسلام حتى قيل أنه ثلث العلم، فبالنية لا تتحول عبادتنا إلى طقوس حسية، كما هو حال اليهود الذين قالوا لموسى عليه السلام: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾ [النساء: 153].

فإنها واجبة في الصلاة والصوم وفي كل عبادة، فيشمل ذلك الوضوء وغيره أيضاً، وأن سنة النبي من وظائفها البيان وإلحاق ما لم ينص عليه في القرآن إلى ما ورد فيها.

وهنا يحق التساؤل من وجهة نظر فلسفية لماذا استحضار النية؟ والجواب أن النية التي محلها القلب، هي نقطة انطلاق إلى الله والتوجه إليه سبحانه وتعالى في أي عبادة، كالصلاة أو الصوم أوفي غيرهما، وفي هذا رد على الحنفية الذين لا يرون وجوبها في

3- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان والنذور، باب النية في الإيمان. صحيح البخاري بحاشية السندي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي، المجلد الثاني، 158/4 الحلبي وأخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية، 53/13.

الوضوء، لعدم ذكرها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ﴾ [المائدة: 6] ومن ثم قاسوها على إزالة النجاسة التي لا تجب فيها النية، بينما ذهب الجمهور إلى وجوب النية في الوضوء، فكما أن النية واجبة في التيمم، اعتمادا على الحديث المتقدم وهو عام، فإنها واجبة في الصلاة والصوم وفي كل عبادة، فيشمل ذلك الوضوء وغيره أيضاً، وأن سنة النبي ﷺ من وظائفها البيان وإلحاق ما لم ينص عليه في القرآن إلى ما ورد فيها، وأن في آية الوضوء نفسها إشارة إلى النية، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ﴾ أي اغسلوا أعضاء الوضوء بقصد الصلاة. وكذلك يفهم من القاعدة الفقهية التي تقول: إن عدم الذكر لا يدل على النفي. وهذا هو الراجح الذي نميل إليه.

فالنية عبادة روحية تبعث في نفس الإنسان معنى التقديس والسمو، وتملأ كيانه بالحب الذي يجعل من غسل الأعضاء في الوضوء استعدادا بالتجمل والتطهر، لجعل الصلاة لقاءً خاشعاً متجددا، ومن كلمات الثناء على الله دعامة تقويه على مواجهة نصب الدنيا ومتاعبها، وحينئذ لا تكون صلاته قراءةً وركوعاً وسجوداً مجرد طقوس فحسب، بل ستكون انفلاتا من عالم المادة، ومن عالم الدنيا إلى عالم أسمى هو عالم الروح، خلوا واتصالا بالله تعالى.

هنا فقط يدرك المسلم أن الصلاة خمس مرات في اليوم والليلة هي الفرصة التي يستطيع أن يرتب فيها أوراقه أو يعيد ترتيبها من جديد، ويزن خطواته ويقوم مسيرته. خمس مرات يطرح المصلي الدنيا وراء ظهره، مع كل تكبيرة، وكلما استغرق في قراءته تمثل له وقوفه بين يدي خالقه، ذلك المشهد الرباني الذي ستقفه الأشهاد يوم القيامة، حائرةً ترجو النجاة من هول ما ترى في ذلك اليوم، ولكن كيف كما يقول القائل:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

لكن اللقاء المتجدد في الصلاة، وبخاصة عندما تكون جماعة، فإنها تفجر طاقات أخرى في روح المصلي، فنظام الصف مثلا نجده حافزا لمراعاة النظام في كل أمور الحياة، وحافزاً للمساواة الكاملة، وأن الشعور بذلك يزيل ما في النفوس من آثار الطبقية الذميمة والتعصب الجنسي البغيض الذي تصطلي بناره أغلب المجتمعات الإنسانية ماضياً وحاضراً، فلم تستطع القوانين الوضعية أن تستأصل شأفته من نفوس المستبدين والمتسلطين.

فهذه العبادة وغيرها هي التي تشعر المسلم بالقوة النفسية، التي تدفعه إلى السير في الاتجاه الصحيح، في كافة مجالات الحياة. فبهذه الجوانب الروحية يقوم المسلم ما اعوج من قيم نبيلة وعظيمة، كي يحرر واقع حياته من آفات هذا العصر، ليصبح من الميسور عليه مواجهة كل الثقافات الغازية التي لا تتلاءم مع خصوصية مجتمعه العربي المسلم، وبالتالي لن تجد نفسه متعطشة لتلك الثقافات، جاثية على كل ما يأتي إليها منه، وإنما تجد نفوسا عامرة بتقوى الله متشبعة بالقيم والأخلاق الإسلامية والشهامة والكرامة العربية.

وكذلك عبادة الصوم وإن كان مظهرها الخارجي يوحي بأنها عبادة يغلب عليها الطابع الحسي أو المادي وهو الامتناع عن الطعام والشراب والمتع الحسية الأخرى، فإن لجانبها الروحي عظيم الأثر في تهذيب النفس، كما ورد في قوله ﷺ أيضا: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[4]. الحقيقة أن هذا النص يسعفنا بالبيان والتفسير لأسرار هذه العبادة، مثلما سنبين إن شاء الله تعالى.

كما أن الصبر من أهم فضائل الصوم الروحية وإن كان مر المذاق، لا يستسيغه إلا من روض نفسه بهذه العبادة، فهام فيها حبا وشوقا، كما يهيم المحب بمن أحب، فقد يغيب الطعام والشراب لسبب من الأسباب، ولكن من ناله شرف هذه الفضيلة تراه متزنا هادئا لا يجزع ولا يقلق، بينما قد تجد البعض الآخر ممن لم يتذوق طعمها، يضيق ذرعا بكل شيء، حتى بالزوجة إذا ما تأخرت قليلاً في إعداد الطعام، وبخاصة في هذا شهر رمضان الكريم، وقد تجد أمثاله في بعض المناسبات، كالأفراح مثلاً يكثرون الصياح من أجل الإسراع في الإتيان بالطعام.

وهنا لا بد لنا من وقفة نستوضح فيها بعض ما في هذه العبادة من أسرار، ولكن ينبغي قبل ذلك أن نبين ما في الصوم من مراتب:

المرتبة الأولى: صوم العموم وهو كف البطن والفرج عن الشهوة.

المرتبة الثانية: صوم الخواص وهو بالإضافة إلى ما ذكر، كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام.

المرتبة الثالثة: صوم خواص الخواص وهم الأنبياء والرسل والصديقون والمقربون وأن صوم هؤلاء هو صوم القلب عن الهمم الدنية، ويحصل الفطر في هذا الصوم لدى هؤلاء

4- أخرجه البخاري في كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به، المجلد الأول، 226/1.

بالتفكر فيما سوى الله واليوم الآخر، كتدبير ما يفطر عليه مثلا، لأن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل، وقلة اليقين برزقه الموعود. هذه هي مراتب الصوم جملة[5].

وأما عن أسراره فللصوم أسرار لا يعي حقيقتها إلا من كان قلبه عامراً بتقوى الله، مقبلاً عليه بهذه العبادة حق الإقبال، ولا يكون كذلك إلا إذا راعى أموراً منها:

1. غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر، إلى كل ما يذم ويكره، وكل ما يشغل القلب عن ذكر الله، قال ﷺ أيضا: «النظرة سهم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يجد حلاوته في قلبه»[6].
2. حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله وتلاوة القرآن، وهذا هو صوم اللسان، وقد روي أن رسول الله ﷺ أيضا قال: «خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة والأيمان الكاذبة والنظرة بشهوة»[7]، وقال: «... إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم»[8].
3. كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه، ولذلك سوى الله بين المستمع وآكل السحت. قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ [المائدة: 42].
4. تعويد النفس على الامتناع عما يحل في أوقات معينة حتى يصبح من الميسور عليها الامتناع عما يحرم في كل الأوقات، وألا يكثر مما يحل من طعام وقت الإفطار، بحيث يمتلئ جوفه، فما من وعاء أبغض إلى الله من بطن ملي ولو من

5- ينظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، وبذيل الصفحات المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من أخبار لأبي الفضل عبد الرحيم حسين العراقي، تقديم ومراجعة صدقي محمد جميل العطار، مطبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، سنة 1421هـ-2001م، 213/1.

6- أخرجه الحاكم في مستدركه وصحح إسناده من حديث حذيفة، ينظر: المرجع السابق 213/1.

7- أخرجه الأزدي في الضعفاء. ينظر: المرجع السابق، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

8- أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «قال الله كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به والصيام جنة وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر وإذا لقي ربه فرح بصومه» صحيح البخاري بحاشية السندي، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، المجلد الأول 1326/1.

حلال، وإلا كيف يستفاد من الصوم ما لم تكسر به الشهوة، وكيف يستفيد الصائم من صومه إذا تدارك عند فطره ما فاته عند ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه من الأصناف والألوان، وقد استمرأت العادة عندنا الإكثار من الطعام في رمضان، فيؤكل فيه ما لا يؤكل في غيره من شهور السنة[9].

ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى، أما إذا امتلأت المعدة تضاعفت قوتها، وتحركت رغبتها في الشهوات الراكدة، مع أن روح الصوم وسره تضعيف قوى هذه الشهوات التي هي من وسائل الشيطان، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل من الطعام[10].

وهنا يلوح لنا في أفق هذه العبادة مدى التقائها بالنظرة الصحية أي التقاء النظرتين الصحية والشرعية، وإن لم تكن الأولى من وكد هذه الدراسة ولا من اهتمامات هذا الموضوع.

ومن أسرار الصوم أيضا ألا يكثر الصائم النوم في النهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف الآخرين، وما تؤثره غائلة الجوع في الفقراء، فلا يقتصر الصوم على الكف عن شهوة البطن والفرج، لما ورد في حديث المصطفى «رب صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش ...»[11]. وإن كان ذلك الصوم صحيحا عند علماء الظاهر، وأما عند غيرهم من العلماء فيعنون بالصحة القبول، وبالقبول الوصول إلى المقصود، فمن جمع بين الظاهر والباطن كمن جمع بين الأصل والفضل وهو الكمال الذي يصفو به قلب الصائم وتطب به نفسه، فتكتمل لديه الجوانب الحسية مع الجوانب الروحية في هذه العبادة وهذا غاية المراد[12].

وإذا أردنا حقيقة أن نحقق لأنفسنا تلك الغاية، لا بد من أن نستلهم الكثير من عناصر القوة في هذه العبادة الخالصة –التي لا يبتذلها الإلف والتكرار– لأن تكون أرضية

9– ينظر: الغزالي، المرجع السابق 213/1.

10– المرجع السابق، الجزء نفسه، الصفحة نفسها.

11– رواه ابن ماجة واللفظ له من حديث أبي هريرة.

12– الترغيب والترهيب للمنذري، تحقيق وتقديم جماعة، منهم محي الدين ديب مستو، طبعة دار ابن كثير ببيروت ودمشق ودار الكلم الطيب بدمشق وبيروت، ومؤسسة علوم القرآن بعجمان ط:2، سنة 1417هـ - 1996م، 90/2.

صلبة تركن إليها النفس المؤمنة، ثم تنطلق منها إلى رحاب أوسع وأشمل وهي السعادة في الدارين.

وأما الزكاة فلكون محلها المال، ملتصقة به التصاقا وثيقا، فإن جانبها المادي هو الواضح للعيان، وهو الذي يجعلها ثقيلة على بعض النفوس. لذا نقرأ في القرآن قول الحق تبارك تعالى: ﴿خُذْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103] ففي هذا النص وصف يسمو بالزكاة عن اقتطاع قدر من المال وإعطائه للفقراء، ليجعلها باعثاً روحياً على الفضائل الخلقية، فإذا ظن مخرجها أنها منة منه، أو ضريبة ليسأل أين ذهبت، يأتي قوله تعالى ردا عليه: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: 263].

فالعبرة إذاً ليست بالمال وإنما بتهذيب النفس، فقد تصبح الكلمة الطيبة أو حتى البسمة العذبة خيراً من كثير من المال المشفوع بالمن والأذى. مع اعترافنا أن بعض المسلمين لا يؤدونها أصلا حتى مراعاة للجانب المادي فقط، وهذه طامة كبرى لما فيه من مخالفة وعصيان من ناحية، وإخلال بمورد رئيس من موارد الدولة الإسلامية وما يترتب عليه من توسيع الهوة بين الأغنياء والفقراء، من ناحية أخرى، وما قد يحدث من تنافر في العلاقات غير الحميمة داخل المجتمع.

فإحياء الجوانب الروحية في الزكاة كعبادة تزكي جوانب الخير في المسلمين، وتحثهم على الالتزام بها ليعتادوا البذل والعطاء، فيسود الإخاء والمحبة والترابط بين جميع شرائح المجتمع غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، فتبصرنا هذه العبادة وما فيها من قيم بهذه الجوانب الروحية ذات الأثر البعيد في نهضة مجتمع فاضل، ليس فقط بالأموال كالضرائب وإنما بالكلمة الرقيقة والابتسامة الودودة.

وكذلك الصدقة أيضاً فهي تبرز هي الأخرى جانبا هاما من الجوانب الروحية، وهو الاعتراف بقيمة المال والعمل في المجتمع الإسلامي، فالغني ليس مذموما إذا حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله.

أما شعيرة الحج فهي من ناحية من أعظم العبادات الإسلامية، لأن بفقدها يتساوى تاركها مع اليهود والنصارى، لما روي عن عَليّ ﷺ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: « من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديا أو

نصرانيا »[13] لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97] ومن ناحية أخرى لو أهملنا جانبها الروحي لأشبهت الوثنية التي قطع الإسلام جذورها، وسد أمامها جميع المنافذ والثغرات، ورغم ذلك يرى أحد الباحثين الغربيين أن استلام الحجر الأسود إنما هو من بقية تقديس الحجارة التي كانت قبل الإسلام. فقال: « من هنا قدس العرب القدماء ضروبا من الحجارة كما يقدس المسلمون الحجر الأسود القائم في زاوية من زوايا الكعبة في مكة »[14]، ويكفي للرد على قوله هذا ما ورد عمر الخطاب ﷺ مخاطباً الحجر الأسود: أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك، ولم يكتف عمر ﷺ بذلك القول بل إن ذلك الرجل الصلب القوي في كل شيء بكى ثم التفت إلى ورائه، فرأى عليا كرم الله وجهه فقال: يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات وتستجاب الدعوات، فقال علي يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع، قال عمر وكيف؟ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172] أي أن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتابا ثم ألقمه هذا الحجر، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء ويشهد على الكافر بالجحود، ولذلك قيل: هو معنى قول الناس عند استلامه: اللهم إيمانا بك وتصديقا بكتابك ووفاء بعهدك، وقد جاء في الأثر أن الله عز وجل ينظر كل ليلة إلى أهل الأرض، فأول ما ينظر إلى أهل الحرم، وأول من ينظر إليه منهم أهل المسجد الحرام، فمن رآه طائفا غفر له، ومن رآه مصليا غفر له ومن رآه قائما مستقبل القبلة غفر له[15].

ففي هذه الشعيرة حقيقة جوانب روحية عظيمة لا تكاد تظهر إلا لمن وقف على عين المكان وشاهد عظمته وتجلت له مكانته، وليس الخبر كالعيان وقديما قيل:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

13- الترغيب والترهيب للمنذري، حديث رقم 1759، 168/2.

14- نقلاً عن أدولف إبرمان من كتاب الحياة المصرية في العهود القديمة، ترجمة ومراجعة عبد المنعم أبو بكر. ينظر: مجلة كلية دار العلوم، قسم الفلسفة بعنوان حاضر العالم الإسلامي أسباب التخلف وعوامل النهضة، الصادرة عن أعمال المؤتمر الثامن للفلسفة الإسلامية، 18- 19 صفر 1424هـ الموافق 20 - 21 أبريل 2003، مقال بعنوان عوامل نهضة المجتمع الإسلامي د. نجوى عمر كامل حسن، ص430.

15- ينظر: الإحياء ص: 21.

ولكن هناك فضائل لا تخفى، ولعل من بينها: فهم موقع الحج من الدين، ولا يكون ذلك إلا بالتنزه عن الشهوات والكف عن اللذات والاقتصار على الضرورات، ثم الشوق إليه لنيل ما وعد الرحمن لحاجه وزائره، من جزيل الثواب، ثم العزم عليه بإخلاص وصدق، بعيدا عن شوائب الرياء والسمعة، ثم قطع العلائق المانعة منه بالتوبة الخالصة من جميع المعاصي.

فالمتأمل في روح هذه الشعيرة وما فيها من أسرار لا يبصر فيها محمدا ﷺ بقدر ما يبصر فيها إبراهيم الخليل عليه السلام وكأنها العودة إلى أصل الديانة الحنيفية بل إن الناظر من أعلى إلى جموع الحجيج في ثيابهم البيض غير المخيطة مندفعين إلى عرفات، ليرتسم في خاطره صورة عملية مصغرة للبعث في يوم القيامة. فالثياب أقرب إلى الأكفان والمظهر لا تجمل فيه ولا زينة، لا يكاد الحاج يحس بمن بجانبه، الكل يشخص إلى هدف واحد، فلو لم يكن للحج قيم روحية غير هذا الاستشعار ليوم البعث لكفاه، علاوة على ما يحققه من مساواة في أعلى صورها وما يبرزه من قيمة الاتحاد في أبهى ما تكون.

وعجيب أن يكتفي المسلمون في هذا الزمن من حجهم بأداء المناسك أداءً ماديا ولا يتغلغلون خلف معانيه الروحية الباهرة، كما كان يفعل السلف الصالح. فقلما ناقش حجيجنا مشكلاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ثم عادوا محتقرين الدنيا، لذلك لم يظفروا من حجهم إلا بالقليل من المنافع. فالأمل في إصلاح أحوال المسلمين قائم على جانب كبير وهو إحياء هذه الجوانب الروحية في العبادات وفي غيرها، واستلهام معانيها من القرآن العظيم وهدي صاحب الخلق القويم، واستقراء مشكلات الواقع التي أشرنا إلي طرف منها في مقدمة هذا الموضوع[16].

ويبقى الجانب الأكبر من أسس الدين وهو المعاملات، ذلك الباب الواسع حيث إن الدين المعاملة[17]، وقوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس ...»[18] أي أن هذه المعاملة بين البشر هي البناء الإسلامي الذي وضعت العبادات قواعده الثابتة، فلا بناء دون قواعد،

16- ينظر: المقال السابق، د. نجوى عمر كامل ص431.

17- هذا من الحكم والأمثال فإنه وإن صح معناه لكنه ليس حديثا نبويا كما يعتقده الكثيرون.

18- أخرجه البخاري عن ابن عمر في كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم. صحيح البخاري بشرح السندي 11/1.

كما أن القواعد دون بناء لا تصلح للسكن. فتلك المرأة الصوامة القوامة، عندما حبست هرة أخبرنا رسولنا ﷺ أنها في النار قال: «دَخَلَت امْرَأَةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ (أي من أجل هرة) رَبَطَتْهَا فَلاَ هي أَطْعَمَتْهَا وَلاَ هي أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً»[19]، فلم تستفد هذه المرأة من صومها ولا من صلاتها ولا سائر عباداتها، لأنها لم تراع الجانب الأهم في الدين وهو المعاملة الشرعية والإنسانية.

فعقيدة المؤمن لا تكتمل إلا بما يعكسه الإيمان الصحيح على تصرفاته وسلوكه، ولقد أخطأ من ظن أن السلوك الذي يسلكه المسلم مع الآخرين من معاملات كالبيع والشراء والإجارة وغيرها منفصل عن العقيدة يكون مخطأً لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45] فمن يصلي ولم تنهه صلاته عن الكذب وقول الزور والبهتان والنفاق والخيانة لا صلاة له لقوله ﷺ: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا»[20] فالصلاة لا تكون مقبولة ما لم تثمر في صاحبها سلوكاً مهذبا وخلقاً فاضلاً، وفي هذا يقول ﷺ: «ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون، ألا أخبركم بأبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة: الثرثارون المتفيهقون»[21] أي كثيرو الكلام تكلفاً وبعدا عن الحق وتجاوزاً وخروجا عن الجادة، وسئل ﷺ: أي المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: «أحسنهم خلقاً»[22] فكمال الإيمان يوجب

19- أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما بدء الخلق. باب: خمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم. وأخرجه مسلم كتاب: التوبة. باب: سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه واللفظ له

20- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. المعجم الكبير للطبراني تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. الطبعة الثانية. 54/11 حديث رقم 11025

21- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى. باب: بيان مكارم الأخلاق. السنن الكبرى للإمام الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. ط: دار المعرفة. بيروت، لبنان. 1413 هـ/1992 م. 194/10. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد. باب: بيان فضول الكلام. الأدب المفرد للإمام الحافظ محمد بن إسماعيل البخاري. خرج أحاديثه ووضع حواشيه محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، ط: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان. ص378. حديث رقم 1308.

22- أخرجه ابن ماجة، كتاب: الزهد. باب: ذكر الموت والاستعداد له. سنن ابن ماجة للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة. صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي. ط. دار إحياء الكتب العربية1423/2 رقم الحديث 4259. وأخرجه عبد الرزاق في مصنفه: كتاب الصلاة، باب: فضل التطوع. المصنف للحافظ الكبير أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق =

حسن الخلق إقتداء بسيرة رسول الله وما شاده في مدرسته التي تربى فيها الصحابة وغيرهم ممن جاء بعدهم من السلف الصالح على فضائل الأخلاق، كالصدق والأمانة والاستقامة، فجعلت منهم قوةً في المشاعر والأحاسيس والعواطف تجاه الآخرين.

فما أحوج مسلم هذا العصر إلى قيم هذه المدرسة المفعمة بكل ما هو خير وسعادة ورضا وسكينة واطمئنان وصفاء ذهني يمنح الإنسان فرصة ثمينة تجعله أكثر حيوية وأكثر إقبالاً على التعامل بسلوك سوي مع الآخرين. فبمثل هذه القيم صنع السلف الصالح حضارة شامخة في أمور الدنيا بما اتبعوا من أمور الدين.

وإذا تجاوزنا هذا الجانب إلى بعض الفضائل الأخرى في جانب المعاملات، كالرحمة والعدل والمساواة والتسامح والوفاء بالعهود وغيرها، باعتبارها من أهم الدعائم الهامة لبناء المجتمعات وحمايتها من الانهيار، فمن الواجب التمسك بها؛ لأنها دعامات روحية بالفعل للحضارة الإنسانية قاطبة، وقلما قام بناء حضاري متماسك واستمر دون استناده على مثل تلك الأسس.

ونكتفي هنا بإشارات الباحث الفرنسي (غوستاف لوبون) الذي أكد على فضائل تحلى بها المسلمون زمن الحروب الصليبية فقال: « إن أوروبا النصرانية كانت دون الشرق الإسلامي أخلاقا بمراحل ... »[23].

ومن تلك القيم أيضا الحب الذي يعد من أجل الأخلاق الإيمانية وهو أصل كل فعل ومبدؤه، فلا يكون الفعل إلا عن محبة، ولهذا كان الحب رأس الإيمان لقوله ﷺ: « والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم »[24]، وقوله أيضا: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[25] فالحب والأخلاق أمران متلازمان فلا وجود لأحدهما دون الآخر، فتأتي قيمته لتنظم العلاقة بين المسلم وربه كما ورد في قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: 54]، ثم ينظم العلاقة بينه وبين الناس، مصداقا لقول النبي ﷺ: « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله من هؤلاء رجلان تحابا في الله اجتمعا

=

عبد الرحمن الأعظمي. منشورات المجلس العلمي 72/3. حديث رقم 4843

23- المقال السابق لنجوى عمر كامل ص: 433.

24- سنن أبي داود، الأدب، الحديث رقم 5193

25- البخاري: الإيمان، 11/1

وتفرقا عليه» وقوله: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». فبالحب تتحول الأعمال كلها إلى مسرات، فإذا أحب المسلم الخير، عمله ووجد لذةً ومتعةً تفوق كل أجر وجزاء. وإذا أحب المسلم أخاه المسلم اختفت الحاجة إلى القوانين الوضعية، وظهر الإيثار الذي مدح الله به بعض خاصته بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9] ليكون هؤلاء النبراس والقدوة التي يجب أن تحتذى، فيعم الرخاء والأمن، وينعم الجميع بحياة سعيدة، ولكن قد يقول قائل: إن هذه القيمة الروحية العظيمة مناطها القلب، وبالتالي لا سيطرة للإنسان عليها، فكيف يدعى المرء إلى التمسك بها؟ نقول هنا دون جدال: إذا كان الأمر كذلك فلا سبيل أمام المسلم إلا التوجه إلى خالقه كما جاء ت دعوته لنا بقوله جل وعلا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: 10].

فبالعقيدة ترتفع عن المسلم حجب الغفلة ويرتبط بمواثيق الله النورانية وتسمو همته إلى طلب الكمال، ومن ثم يدرك من الحقائق ما كان خافيا عنه.

فحري بالمسلمين الآن وفي كل زمان أن يحيوا هذه الفضائل الخلقية التي اعترف بها المستشرقون المنصفون، وأن يستشرفوا ما فيها من معان، وأن يجعلوها أساس العلاقات الاجتماعية فيما بينهم وبين الآخرين، فتصبح عباداتهم سلوكاً رادعاً مانعاً من كثير من الرذائل كالغش والسرقة، وقول الزور والبهتان والافتراء على الغير بالباطل، ومن ثم سوف تتجلى لهم الحياة الإنسانية الكريمة في أوج عظمتها، فتحقق للمجتمع غاياته في التقدم والازدهار.

إذاً ما أحوجنا في هذا العصر اللاهث وراء الماديات إلى لحظات نسترد فيها أنفاسنا، ونهدي فيها قوانا المنهكة في عجلة الحياة، ولطالما شكا إنسان هذا العصر من دورانه كترس في آلة لا تتوقف، إلا عندما يصيبها العطب.

نسأل الله التوفيق لفهم ما غاب عنا من أحكام شرعه، إنه هو سميع مجيب.